نشأة الصفويين

تنتسب الأسرة الصفوية إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي (٦٥٠هـ - ٧٣٥هـ) ، والذي كان في بداية عهده من مريدي الشيخ (تاج الدين الزاهد الكيلاني) . وهذا كان واعظاً صوفياً شافعي المذهب في مدينة (أردبيل)[١] ، ثم أسس فرقة صوفية تسمى (الإخوان) وقد كثرت هذه الفرقة في إقليم (أذربيجان) .

بعد وفاته أخذ مشيخة طريقته (والتي سميت بالطريقة الصفوية) ابنه صدر الدين موسى (٧٠٤هـ - ٧٩٤هـ) .

ولما توفي صدر الدين تولى ابنه « خواجة علي » الذي كانت له عدة لقاءات مع تيمور لنك المغولي المتشيع ، وتولى مشيخة الطريقة مدة (٣٦ سنة) ومات في فلسطين سنة (٨٣٠هـ) وقبره معروف في يافا باسم قبر الشيخ « علي العجمي » . وكان للخواجة علي ميل بسيط للتشيّع ولم يكن تعصُّباً أو غلوّاً ، ويرجِّح بعض الباحثين أن تشيعه كان تأثرا بتيمورلنك ، الذي مِنَحَه مدينة أردبيل وضواحيها لتكون وقفًا له ولأبنائه من بعده . كما أن خواجة علي توسَّط لفكِّ أَسْرِ القبائل التي أسرها تيمورلنك ، فكانت بعد ذلك هذه القبائل من أشد جنده وأتباعه . ثم تولى مشيخة الطريقة من بعده ابنه إبراهيم الذي لقب بـ « شيخ شاه »

---

(١) هي مدينة تابعة لإقليم أذربيجان السابق ، وهي الآن في شمال غربي إيران قرب بحر قزوين .

أي « الشيخ الملك » ؛ لأنّ مظاهرالملك ظهرت عليه أكثر من مظاهر رئاسة الطريقة الصوفية . وتوفي سنة (٨٥١هـ) وكان تشيعه واضحاً على طريقة الشيعة الإثني عشرية ، وأدخل أتباعه بصراعات مع أهل السُنة بمدينة داغستان ، وخلفه ابنه الأصغر جنيد والذي كثرت في عهده الاهتمام بالمظاهر الملكية ولكثرة أتباعه ونزعته للملك خاف منه ملوك تلك المناطق ، فضيقوا عليه حتى رحل إلى مدينة حلب ثم إلى مدينة ديار بكر ، وهناك حسنت علاقته بحسن أوزون .

و « جنيد » هذا كان شيعياً جلداً متعصباً محارباً لأهل السُنّة « إذ إن طريقته الصوفية هي مزيج من التصوف والتشيع » فهم صوفية وأئمتهم هم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة ، وقد أعلن جنيد أنه انفصل عن أهل السُنّة بالكلية وأصبح شيعيًا ، ثم عاد لمحاربة ملوك التركمان (آق قونيلو ، قرة قونيلو) والعثمانيين ، وعندما أحسَّ بالخطر تحالف مع سلطان الآق قونيلو (حسن أوزون) ولكنه قُتل في إحدى حروبه في مدينة شيروان سنة (٨٦١هـ) وخلفه ابنه حيدر وتزوج من « مارتة » بنت حسن أوزون « الطويل »[١] ، وكانت أمها « كاترينا » ابنة « كارلو يوحنا » ملك مملكة طربزون[٢] اليونانية النصرانية .

و « حيدر » هو أول من لقب بلقب « سلطان » في العائلة الصفوية ،

---

(١) هو حسن الطويل مؤسس دولة « آق قونيلو » التي حكمت شمال غرب إيران .

(٢) هذه المدينة تقع الآن في تركيا على البحر الأسود وكانت مملكة يونانية آنذاك .

وأمر أتباعه الدراويش[١] بأن يضعوا على رؤوسهم قلنسوة مخروطية الشكل مصنوعة من قماش الجوخ الأحمر ، وتحتوي على اثنتي عشرة طية رمزاً للأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية ، وسموا بـ « قزلباش » ، وهي كلمة تركية تعني « الرأس الأحمر » وكان أتباعهم شديدي التعلق بهم والغلو في مشايخهم ، مع قلّة عبادة بل كانت طريقتهم هي مجموعة أشعار ومدائح واعتقادات مغالية في تقديس مشايخ الطريقة .

وقد كوّن حيدر جيشاً للانتقام لمقتل والده من ملك مدينة شروان (التابعة الى إقليم داغستان حاليا) ولكنه قُتل سنة ٨٩٣هـ ، وكان لحيدر ثلاثة أولاد : (علي ، و إبراهيم ، وإسماعيل) وقد خاف منهم الأمير يعقوب أميرالدولة التركمانية « آق قونيلو » فسجنهم ، ثم أطلق سراحهم بعد وفاة الأمير يعقوب ، ولكن علي وإبراهيم قُتِلا ، وذهب إسماعيل إلى مدينة « كيلان » على بحر قزوين جنوب أردبيل ، فرعاه السادة الصوفية ، ، وكان قد تربى منذ صغره على التشيع الشديد ،

---

(١) حالة الصفويين تمثل العلاقة بين التصوف والتشيع ، فقد تحولت الطريقة الصوفية السنية « الشافعية » عند صفي الدين الأردبيلي وابنه صدر الدين بالتدرج إلى تشيع خفيف ثم إلى تشيع غال . وقد كان التصوف–مع الأسف– أكثر من مرة مدخلاً للتشيع ، وقد كتب عن ذلك الكاتب الشيعي الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه : « الفكر الشيعي والنزعات الصوفية » ، و « الصلة بين التصوف والتشيع » . وقد أشار إلى ذلك المستشرق براون (Brown) عندما قال : إن التشيع والتصوف كان من الأسلحة التي حارب بها الفرس العرب : انظر : (A literary : Brown History of Persiavol P . 410) .

وحاول منذ صغره تجميع الصوفية القزلباشية حوله من أجل الانتقام من قتلة أبيه وجده .

وتمّ ذلك فعلًا وتوجّه إلى أمير دولة التركمان « آق قونيلو » سنة ٩٠٧هـ ، وقتله ، وجلس على ملكه بعد أن بايعته كل قبائل التركمان » لأن القبائل كان لها اعتقاد بالطرق الصوفية ، ثم أعلن قيام الدولة الصفوية .

الشاه إسماعيل أول ملك للدولة الصفوية

(٩٠٧هـ/١٥٠١م)

كما سبق ذكره ، قَتَلَ الشاه إسماعيل أمير دولة « الآق قونيلو » وأعلن قيام الدولة الصفوية وعاصمتها في مدينة « تبريز »[١] .

وأول ما قام به أعلن أنّ مذهب دولته الصفوية هو الإمامية الإثنى عشرية ، ثم شرع بنشر التشيع في جميع المنطقة المسماة اليوم (إيران)[٢] ، وعندما نُصِحَ أن مذهب أهل إيران هو المذهب الشافعي وأن هذا الإعلان سيوجه بالرفض قال : « إنني لا أخاف من أحد .. فإن تنطق الرعية بحرف واحد فسوف امتشق الحسام ولن أترك أحداً على قيد الحياة »[٣] .

---

(١) هذه المدينة ليومنا هذا بنفس الاسم وهي في إقليم أذربيجان في إيران .

(٢) هذا الاسم (إيران) بدأ بظهوره وبتبلوره بشكله الواضح منذ ظهور الدولة الصفوية .

(٣) « تاريخ إيران زمين » (ص٢٦٧) ، د . محمد جواد مشكور .

ثم سكّ عملة للبلاد كاتباً عليها : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله » ، ثم كتب اسمه على العملة[١] .

وأمر الخطباء في المساجد بسبِّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ، مع المبالغة في تقديس الأئمة الاثني عشر .

وقد عانى أهل السُّنَّة في إيران معاناة كبيرة وأُجْبروا على اعتناق المذهب الإمامي بعد أن قتل الشاه إسماعيل مليون إنسان سُنِّي في بضع سنين[٢] ، وكان يمتحن الإيرانيين السُّنَّة بطرق شتى ؛ كأن يطلب من الفرد السُّنِّي سبّ الخلفاء فإن فَعَلَ طلب منه مزيدًا من السبّ ، فإن وافق أُطلق وإلا قطعت عنقه فوراً ، وأعلن سبَّ الصحابة والخلفاء في الشوارع والأسواق وعلى المنابر ، منذراً كل المعاندين السُّنَّة بقطع رقابهم[٣] .

ولَرُبَّ سائل يسأل : كيف استطاع الشاه إسماعيل أن يسيطر على كل بلاد إيران ؟

والجواب : هو أن إيران والعراق كانتا ـ قبل حكم الصفويين ـ

---

(١) « الشاه عباس الكبير » (ص١٠) د . بديع محمد جمعة .

(٢) « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق » (١/٤٣-٥٠) ، د . علي الوردي كاتب شيعي .

(٣) « الفكر الشيعي » كامل الشيبي (٤١٥) » « لمحات إجتماعية » علي الوردي (١/٥٩) .

تحكم من قِبَلِ « الآق قونيلو » وقبل ذلك من « القرة قونيلو » وكلاهما قبائل تركمانية ، وإسماعيل الصفوي عاش هو وأجداده في كنف هذه الدول التركمانية ، لكن تصوف أتباعه وتقليدهم الأعمى له جرهم إلى التشيع ، فأصبحوا صوفية متشيعة وسموا بـ « القزلباشية » كما ذكرنا وأتباع إسماعيل عبارة عن مجموعة قوية من العشائر التركمانية « شاملو ، قاجار ، تكلو ، ذو قدر ، أفشار ، روملو » ، وهؤلاء شكّلوا فيما بعد ميليشيا مسلحة صوفية متشيّعة ، وكوّنوا للشاه إسماعيل جيشاً فاتكاً ، فتك بأهل السُّنَّة الشافعية وبعضهم حنفية في كل أنحاء بلاد إيران ، وكان للصفويين تأثير روحي على أتباعهم ، وتذكر بعض المصادر الشيعية الفارسية : أنه بينما كان الشاه إسماعيل مع أتباعه الصوفية في الصيد في منطقة « تبريز » إذ مرّ بنهر فعبره لوحده ودخل كهفاً ثم خرج متقلّداً بسيف وأخبر رفاقه : أنه شاهد في الكهف « المهدي » صاحب الزمان- عند الشيعة- وأنه قال له : « لقد حان وقت الخروج » ، وأمسك ظهره ورفعه ثلاث مرات ووضعه على الأرض ، وشدّ حزامه بيده ووضع خنجراً في حزامه وقال له : « اذهب فقد رخصتك »[١] .

ثم بعد ذلك بقي الشاه إسماعيل متردداً وقلقاً في اتخاذ القرار حتى ادعى أنه رأى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في المنام وقال له :

---

(١) « تاريخ الشاه إسماعيل » (ص٨٨) ، طبع مركز تحقيقات فارس- إيران ، وباكستان ، إسلام آباد ، « عالم آراء صفوي » (ص٦٤) .

« ابني .. لا تدع القلق يشوّش أفكارك .. أحضر « القزلباشية » مع أسلحتهم الكاملة إلى المسجد في « تبريز » وأمرهم أن يحاصروا الناس ... وإذا أبدى هؤلاء أية معارضة أثناء الخطبة باسم أهل البيت فإنّ الجنود ينهون الأمر »[١] .

وفعل الشاه إسماعيل ما طُلب منه في الجمعة مع أتباعه القزلباشية وحاصر جامع تبريز وأعلن سيادة المذهب الإمامي الإثني عشري بقيادة الدولة الصفوية . وسبب هذه الدعوى هو التحرر من فكرة « التقية » و « انتظار خروج المهدي » والتي بقي علماء الشيعة يحملونها في عقيدتهم كأحد المبادئ الرئيسية في المذهب ، وتركوا الجهاد والصراع العسكري إلى ظهور المهدي . ثم لما أرادوا الخروج من هذه الفكرة اخترعوا مجموعة أخرى من الأفكار والخرافات كي يبرروا خروجهم من المذهب (يقعّدوا قواعد فاسدة ثم ينقضونها بأفسد منها) .

ويحلل الكاتب « راجر سيوري » ذلك بأنّ الصفويين اعتمدوا على فكرة الحق الإلهي للملوك الإيرانيين قبل الإسلام منذ سبعة آلاف سنة ، وذلك بتوراث هذا الحق إلى ملوكهم ، وعندما تزوج الحسين بن علي رضي الله عنهما بنت ملك الفرس « يزدجرد » بعد معركة القادسية وأولدها الإمام زين العابدين « علي » اجتمع عندهم حقان : حق أهل البيت في الخلافة (حسب نظرية الإمامية) ، وحق ملوك إيران

---

(١) راجر سيوري : « إيران في العصر الصفوي » (ص٦٤) .

(حسب نظرية الفرس)[١] ، بالإضافة إلى فكرة نيابة المهدي . كلّ ذلك من جانب التشيع الفارسي . لعلوي حسن عطرجي (١٨-١٩)

أما الجانب الصوفي فقد زوّد الفكر الصفوي بالمنامات والكشوفات ، فيذكر الصفويون أن أحد مشايخ الصوفية وهو الشيخ (زاهد الكيلاني) والذي تَرَبَّى على يده جدهم « صفي الدين الأردبيلي » تنبأ على أثر رؤية لصفي الدين الأردبيلي « أن أولاد هذا الزعيم سيملكون العالم ، ويترقون يوماً بعد يوم إلى زمان القائم المهدي المنتظر »[٢] .

وللرؤى والكشوفات تأثير ساحر في عالم التصوف ، لذا فقد أثّرتْ هذه النبوءة على (القزلباشية) وكانوا يتصورون أنّ مُلك الصفويين سيستمر حتى ظهور « المهدي » لذا اهتزت هذه النظرة بعد خسارتهم في موقعة « جالديران » بين الشاه إسماعيل والسلطان العثماني سليم سنة (٩٢٠هـ/١٥١٢م) ، وهزيمة الشاه إسماعيل ، فبدأ الصراع يدبّ بين (القزلباشية) ونشأ تقاتل بينهم بعد اهتزاز هذه العقيدة في عقولهم[٣] .

---

(١) المصدر السابق (ص٢٦) .

(٢) المصدر السابق (ص (٢٩) ، بينما يذكر صاحب « عنوان المجد » إبراهيم بن صبغة الله الحيدري (ت : ١٨٨٢م) ـ وهو من نسل الصفويين الذين بقوا على سُنّيّتِهم وهربوا من الصفويين الشيعة ـ تأويلاً آخر للرؤيا ، وإن معناها : استمرار خروج العلماء من هذه العائلة إلى قيام الساعة . ولكن لا هذا حصل ولا ذاك .

(٣) المصدر السابق (ص٤٩) .

وهناك سبب آخر : وهو أنّ الطريقة الصفوية في إيران والطريقة البكتاشية في تركيا كانتا من الطرق الصوفية التي جمعت بين الغلو في تقديس الأشخاص والباطنية المغالية[١] .

والشاه إسماعيل كان يجمع بين التعصُّب المذهبي والغلوِّ والتكفير من جانب وبين الدموية من جانب آخر[٢] .

---

(١) « التقريب القرآني في ضوء الصراع الصفوي العثماني » لعلاء الدين المدرس » (٩) ط ، المعروف .

(٢) وهذا ما يحصل اليوم في العراق وبغداد على الخصوص ؛ حيث ظهرت الآن أفكار التشيع المغالي في التكفير والتي زرعت بشكل مركّز عند الشيعة في فترة التسعينات (١٩٩١-٢٠٠٣م) إبان الحصار الأمريكي على العراق ، ثم ظهرت نتائجه بعد سقوط بغداد واحتلال الأمريكان ، فتشكلت المليشيات الشيعية وعذبت أهل السُّنَّة بأساليب لم تعهد في تاريخ العراق ، ثم قتلتهم وهجرتهم بحملة تطهير شرسة ، ورحل الآلاف بل الملايين من أهل السُّنَّة (داخل البلاد وخارجه) . ويخطئ من يظن أن الشيعة المتطرفين فعلوا ذلك فجأة بعد الاحتلال ، بل هي أفكار حملها علماء الشيعة قديما وزرعوها عند عوامهم ولكنها لم تجد لها مخرجا ، و حتى الشيعة الذين ظهروا بشكل معتدل للناس سابقا فعلوا اليوم ما يندى له الجبين ، والدليل على ما نقول أن تلاميذ العالم والمفكر الشيعي المعروف (محمد باقر الصدر) الذي أعدمه صدام حسين ـ وهو يعد معتدلاً ـ من أمثال إبراهيم الجعفري وجواد المالكي ، أعضاء حزب الدعوة ، الأكثر اعتدالاً في نظر بعض السُّنَّة ، في عهدهم حصلت هذه المجازر والتي لم يشهدها تاريخ المنطقة منذ مئات السنين .

ووالد الصدر « مقتدى » هو (محمد صادق الصدر) والذي يوسم بالاعتدال كذلك ، هؤلاء هم أتباعه ، ميليشيا جيش المهدي ، والكل يعرف الجرائم التي =

فقد نقل عنه قريبه إبراهيم صبغة الله الحيدري[١] في « عنوان المجد » (ص١١٩) أنه أكثر القتل حتى قَتَلَ ملك (شروان) ، وأمر أن يوضع في قِدْرٍ كبير ويطبخ ، وأمر بأكله ففعلوا (أي القزلباشية)[٢] ، وكان لا يتوجه لبلاد في داخل إيران إلا فعل أشياء يندى لها الجبين ؛ من قَتْلٍ

= ارتكبها هذا الجيش ، وأي فِكْر تكفيري دموي حُمّل هذا الجيل الشيعي . وقبل ذلك حرس الثورة الإيراني والذين تربوا على أفكار خميني ثم خامنئي ماذا فعلوا بالعراق من دموية نادرة الحدوث لم يفعلها حتى اليهود في فلسطين دون مبالغة . وبعد كل هذا يخرج علينا من لا يعرف عن التشيع إلا رسمه ليفتي لنا بغير علم بالتقريب بين المذاهب ، وما ذاك إلا لجهلهم بالتشيع وأفكاره وتاريخ نشأته ، ونخص بالذكر بعض علماء مصر (الأزهر) ومفكريها ودعاتها (هذا على سبيل العموم وإلا ففي مصر من يفهم خطر التشيع بدقة) .

(١) لهذا العالم المتوفي سنة (١٨٨٢هـ) جهودًا قيمة في كتابه هذا في توثيق تاريخ تشيّع العشائر العراقية ، كما إن له كتابا قيما بعنوان : « النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعة » بتحقيقي ، وهو تحت الطبع في مكتبة الإمام البخاري ، يَسّرَ الله طبعه .

(٢) فعلت مثل هذه الجرائم اليوم في العراق ؛ فحرق الشباب السُّنّي أحياءً أمام منازلهم (وأبشع حادثة ما فعلته ميليشيات بدر وجيش المهدي عندما شوو طفلا صغيراً سُنّيًّا في فرن وأرسلوه إلى أمه وهذه الحادثة يعرفهاأهل بغداد في منطقة الأمين الواقعة شرق بغداد الرصافة) ، (وفعل كذلك بشاب اسمه عمر في منطقة شارع فلسطين سووه وأعطوه إلى أهله على طبق) وكذلك أحرقواوجوه دعاة أهل السُّنّة بالتيزاب (ماء النار أو الأسيد) وثقبوا أجسادهم بالمثقب ، وقلعوا أعين الكثير ؛ بل إن حادثة (أبو عمر المشهداني) في منطقة الدورة محروقة عندما ألقوه في فرن الخبز وحرقوه . وقد نشرت القناة البريطانية الرابعة في برنامج (ديسباتشيز)فلماً عن بعض هذه الفضائح البشعة (نشرت في شهر كانون الثاني سنة ٢٠٠٧م) .

ونَهْبٌ وتمثيل ، حتى قتلَ من أعاظم علماء العجم « السُّنَّة » وحرّق كتبهم وانهزم كثير من العلماء إلى بلاد أخرى ، منهم جد مؤلف « عنوان المجد » انهزم إلى بلاد الأكراد السُّنِّيّة في شمال العراق . وقتل من أهالي مدينة تبريز فقط ٢٠ ألف سُنِّي .

ثم أمر الشاه إسماعيل جنوده بالسجود له . وكان من دمويته أن ينبش قبور العلماء والمشايخ « السُّنَّة » ويحرّق عظامهم ، وكان إذا قتل أميراً من الأمراء السُّنَّة أباح زوجته وأمواله لشخص ما من أتباعه .

وكان أتباعه يقدسون الشاه إسماعيل ويعتقدون أنه لا ينكسر ولا يقدر عليه أحد[١] .

هذا هو مؤسس الدولة الصفوية (إسماعيل شاه) التي تُعَدُّ الدولة المؤسسة لكل دول الشيعة الإثنى عشرية فيما بعد .

توسع الشاه إسماعيل في أرجاء إيران بعد أن تتبع مُلك دولة (آق قونيلو) فذهب إلى جنوب تبريز إلى مدينة همدان وهزم (مراد بيك) أمير قبائل آق قونيلو ، الذي فرّ إلى مدينة شيراز[٢] واستولى عليها ، وقضى على دولة التركمان السُّنِّيّة في إيران ، وذلك سنة (٩٠٩هـ)[٣] ،

---

(١) « عنوان المجد » للحيدري (١١٩-١٢٠) .

(٢) مدينة موجودة مقابل دولة الكويت من جهة الخليج العربي في إقليم فارس .

(٣) « إيران دراسة عامة » د . محمد وصفي أبو مغلي ، ١٩٨٥ ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة .

واستولى على فارس ، وكرمان ، وخوزستان (عربستان) ، ومازندران ، واسترابـاد[١] . بعد ذلك توجه الشاه إسماعيل إلى جهة الشرق إلى خراسان واستولى عليها سنة (٩١٦هـ) واستولى على مدينة مشهد . وفي نفس السنة توجه إلى مرو شمال شرق إيران وذبح أكثر من عشرة آلاف من سكانها من أهل السُّنَّة لأنهم رفضوا التشيّع[٢] .

ثم حاول أن يمتد إلى بلاد الأوزبك سنة (٩١٨هـ) وأرسل أحد قواده ولكنه انهزم وقُتِلَ قائده وضعفت جبهته في هذه المنطقة وهجم عليه الأوزبك وكادوا يسترجعون خراسان لكنها بقيت في قبضة الشاه إسماعيل .

دخول الشاه إسماعيل العراق واستيلاؤه على بغداد

من المعلوم للجميع أن بغداد عاصمة الدولة العباسية سقطت بيد المغول سنة (٦٥٦هـ) ، وبعدها حكم العراق المغول وسميت دولتهم

---

(١) **فارس** : هي المنطقة التي تقابل الخليج العربي من الجهة الثانية ، **وأما كرمان** : فهي بين باكستان وإقليم فارس المذكور . **أما خوزستان** : فهي عربستان وهي معروفة شمال الخليج العربي مقابل مدينة البصرة العراقية وأشهر مدنها مصفى عبدان والمحمرة ، **أما مازندران** : فهي شمال شرقي طهران جنوب شرق بحر قزوين ، **وأما استراباد** : فهي شمال طهران جنوب بحر قزوين غربي مازندران أي هو سيطر على غربي وجنوب وشمال إيران الحالية ، مبتدءاً دولته من إقليم أذربيجان شمال إيران .

(٢) « إيران دراسة عامة » د . محمد وصفي أبو مغلي (ص٢٤٧) .